

الكتاب الثالث: "من الحرية والجنون والإبداع" (الحلقة الثالثة عشر)



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2019/11/30

السنة الثانية عشرة - العدد: 4473

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

تطبيقات

1- فى المرض والعلاج

يصدق ما ورد فى هذا الفرض فى مجال المرض النفسى، كما يصدق فى مجال النمو النفسى، ولكن صدقه فى مجال الإبداع الأدبى خاصة هو أكبر وأخطر. فإذا كنا نتكلم عن الجنون وطبيعته الحرة المطلقة، فقد سبق أن أشرنا كيف أنها تنتهى إلى سجن مطلق أيضاً، فالمجنون حر ولكن، فى اتجاه واحد، ولايصبح الجنون مشروع حرية بالمعنى المتكامل إلا حين يصبح حركية لها أكثر من اتجاه، ومتى أصبح كذلك اقترب من الإبداع حتى قد يتحول - بالعلاج المكثف وأحياناً: تلقائياً- إليه بجدلية فائقة. إلا أن تناول بعض القضايا التطبيقية من منظور الحرية كما قدمناها فى هذه الدراسة، قد يعيد تعرفنا على المفهوم الذى حاولنا تقديمه بطريقة عملية، مما قد يدعم أو يهز ما ذهبنا إليه، وهاكم بعض ذلك:

2- فى الإبداع الأولى إنشاءً ونقداً

فإن النص الحر، إن صح التعبير، هو النص المتحرك المحرك، وليس النص الذى يحوى حديثاً عن الحرية أو دفاعاً عنها، أو رؤية لها، كما شاع فى بعض أوساط النقد السطحى (والسياسة)، أو كما طغى فى بعض مراحل التاريخ حين تجمدت حركة الفكر انخداعاً بتحقيق الثورة. فقارئ بيت الشعر "إذا الشعب يوماً أراد الحياة.. فلا بد أن يستجيب القدر" إلخ، قد يُبلغ شيئاً ما عن الحرية، وقد يدفعه هذا إلى قدر من الحماس أو التضحية، لكنه لا يعايش حركية توجه وجوده من خلال تحريك هادف، وأقصد هادفاً هنا بمعنى الغائية، وليس بمعنى القصد الواعى، ومن المعاد أن نقول إن مثل هذا الشعر الوطنى أو الحماسى أو الثورى ليس هو المثل الدال على حرية النص ومدى حركيته وعمق أصالته، فى حين أن قصيدة لأنسى الحاج أو سعيد عقل أو امرؤ القيس تعلن عن مساحة الحركة بقدر ما تحرك وعى المتلقى بشكل قد لا يسمح له بالتراجع بعد التلقى. ليست المسألة مفاضلة بين شاعر وشاعر، أو بين كاتب وآخر، بل إن المقياس ينطبق على نفس المبدع من عمل إلى آخر. فنحن نرى فى ليالى ألف ليلة لنجيب محفوظ زخم الحركة بما يعلن بشكل مباشر اتساع المساحة وثوب التناسخ حتى إحياء الموتى، فى حين نعيش فى الحرافيش حركية دورات الحياة بكل نبضها ووجوهها، وفى أولاد حارتنا، تهاداً المسألة حتى تصبح إعادة رصينة لدورة عتيقة بلا مفاجآت فى الكاتب أو الكتابة، ونحن لا نحكم على حركية النص بعدد الثورات التى تحققت استجابة لمحتواه، ولا بكم البطولات، وإنما نعايش حركيته بقدر اتساع الرقعة وقوة التحريك وحيوية النبض.

تتصل بهذا البعد مسألة واقعية النص، فالنص واقعى- من منطلق الحرية- بقدر ما أن ذات المبدع ثرية بواقعه الذى هو ليس ذاتها وإنما تركيباتها المرنة المتواصلة ذهاباً وجيئة مع واقع موضوعى حقيقى،

المجنون حر ولكن، فى اتجاه واحد، ولايصبح الجنون مشروع حرية بالمعنى المتكامل إلا حين يصبح حركية لها أكثر من اتجاه، ومتى أصبح كذلك اقترب من الإبداع حتى قد يتحول - بالعلاج المكثف وأحياناً: تلقائياً- إليه بجدلية فائقة

إن النص الحر، إن صح التعبير، هو النص المتحرك، وليس النص الذى يحوى حديثاً عن الحرية أو دفاعاً عنها، أو رؤية لها.

كما طغى فى بعض مراحل التاريخ حين تجمدت حركة الفكر انخداعاً بتحقيق الثورة

قارئ بيت الشعر "إذا الشعب يوماً أراد الحياة.. فلا بد أن يستجيب القدر" إلخ، قد يُبلغ شيئاً ما عن الحرية، وقد يدفعه هذا إلى قدر من الحماس أو التضحية، لكنه لا يعايش حركية توجه وجوده من خلال تحريك هادف

من المعاد أن نقول إن مثل هذا الشعر الوطنى أو

الجماسى أو الثورى ليس هو
المثل الدال على حرية النص
ومدى حركيته وعمق أصلته

أن قصيدة لأنسى العالج أو
سعيد محفل أو امرؤ القيس
تعلن عن مساحة الحركة بقدر
ما تحرك ومدى المتلقى بشكل
قد لا يسمع له بالتراجع بعد
التلقى

نحن لا نعلم على حركية
النص بعدد الثورات التى
تحققته استجابة لمحتواه، ولا
بكم البطولات، وإنما نعايش
حركيته بقدر اتساع الرقعة
وقوة التحريك وحيوية النبض.

النص واقعى - من منطلق
الحرية - بقدر ما أن ذاته
المبدع ثرية بواقعهما الذى
هو ليس ذاتها وإنما
تركيباتها المرنة المتواصلة
ذاهبا وجبهة مع واقع
موضوعى حقيقى، وهذا إنما
يظهر فى إفراز واقع أوقع
من الواقع

أن الحرية لا تتفق مع
الاعتمادية، وأن الإنسان الحر
هو الإنسان الناضج المستقل
عن الآخرين بنفسه لنفسه

إن قضية الحرية الغربية
تتبلور معالمها من خلال
مقولات ظاهرة ومتكررة مثل
"أزمة الهوية فى المراهقة"
وحفز الاستقلال المبكر فى
أوائل منتصف العمر،
والاقتصار على العائلة النواة
أو العائلة الصغيرة المغلقة
الحدود، والتأكيد على تقرير
الذات، والطلاق المتكرر

وهذا إنما يظهر فى إفراز واقع أوقع من الواقع، وهو الواقع الإبدعى وهو التخليق الأكثر موضوعية
الذى شكله المبدع الحر، مثل هذا المبدع ليس واقعا فحسب، وإنما هو خالق لواقع حقيقى آنى ومائل
(وواعد قادم أيضا)

يترتب على ذلك أن النسخة المسطحة من الواقعية الاجتماعية أو الواقعية الاشتراكية التقليدية هى أبعد
ما تكون عن الحرية، وهذا أمر لم يعد يحتاج إلى أن يؤكد عليه كثيرا. الواقعية الموضوعية هى التى تتم
من خلال الحرية (حركية الوجود المرنة) التى تسمح برحلة الذهاب والعودة بين "الذات/الموضوع"
و"الموضوع/الذات" معظم الوقت دون تحديد زائف لذات بعيدة عن الموضوع، وبالتالي فأولى بها أن
تسمى "الواقعية الإبداعية" من حيث أن الإبداع يخلق واقعا أكثر موضوعية بشكل ما.

3- الحرية وقبول الاعتمادية لتجاوزها

يبدو لأول وهلة أن الحرية لا تتفق مع الاعتمادية، وأن الإنسان الحر هو الإنسان الناضج المستقل
عن الآخرين بنفسه لنفسه، وهذا فكر قد يكون سليما فى الظروف التى ظهر فيها حتى تقدس، وقد تقدس
أساسا فى مواجهة قهر سلطات دينية وسياسية لا ترضى بأقل من التبعية المطلقة. لكن هذا الأمر يحتاج
إلى مراجعة خاصة بعد تراجع هذه الظروف ظاهرا على الأقل، وفى هذا الصدد علينا أن نتذكر أن ثمة
اختلافات بيئية جذرية تلزمننا بإعادة النظر فى هذه المسألة، وهى اختلافات بيئية تتعلق بمصر أولا،
والعالم العربى لدرجة أقل، وعالم الشرق الأقصى بدرجة ما، لكن جانبها الإيجابى بدأ يظهر أكثر وضوحا
من ناس الغرب أيضا الذين انتبهوا إلى ضرورة نقد ما ألوا إليه، أو ما شاع عنهم. إن قضية الحرية
الغربية تتبلور معالمها من خلال مقولات ظاهرة ومتكررة مثل "أزمة الهوية فى المراهقة" وحفز الاستقلال
المبكر فى أوائل منتصف العمر، والاقتصار على العائلة النواة أو العائلة الصغيرة المغلقة الحدود، والتأكيد
على تقرير الذات، والطلاق المتكرر، وكلها قضايا ليست معيشة عندنا بنفس الصورة، أو بنفس الدرجة،
فالاعتمادية على الكبير فى ثقافتنا - قبل التشويه الأخير - هى حق معن لا نتهرب ولا نخجل منه،
ورعاية الكبير للصغير (الصغير حتى سن الخمسين وأكثر أحيانا) هى ممارسة طبيعية سلسة، وعلاقة هذا
وذاك بالحرية هى علاقة إيجابية. إن الاعتمادية الطبيعية والمعلنة قد تخلق الحرية وتؤكد الحركية بعكس
المتصور لأول وهلة. فى مصر بوجه خاص قد تمتد هذه القضية إلى النظام المصرى القديم، ثم ترتقى
بالتوحيد الأختائونى، وتعود لتأخذ شكل الاستعباد، لترتقى مرة ثانية بالأديان السماوية الحديثة، المتممة
بالإسلام فى عمث رسالتها الإبداعية الإيمانية، بما تتجلى فيه جرعة اعتمادية خلاقة من خلال التمحو
حول محور التوحيد المركزى بـ "لا إله إلا الله" إذا مورست بحقها فى الفعل اليومى.

إذا انتقينا من كل هذا التراث معنى أضحى إسماعيل وإبراهيم، لوجدناها تمثل أقصى صور الطاعة
حتى الذبح، ثم إعادة الولادة. وصلت إلى الاعتمادية فى هذا الرمز فى صورة طاعة الصغير للكبير حتى
الموت ذبحا، ولكن ليس باعتبار أن الكبير هو الأعرف والأقدر لمجرد أنه كبير، ولكن باعتباره الأقرب
إلى الأكبر فالأكبر إلى وعى المطلق إلى وجه الله ذلك أن إسماعيل حين أطاع أباه إبراهيم لم يقل له
"افعل ما ترى"، أو ما تريد، وإنما قال له "افعل ما تؤمر"، وكأنه ما أطاعه إلا لأن إبراهيم بدوره يطيع
الحق الأكبر، ولا تخفى دلالة وصول هذا الأمر من خلال الحلم ليصبح واقعا ملزما (إنى أرى فى المنام
أنى أذبحك). هذا التفسير ليس دعوة إلى الاعتمادية بقدر ما هو محاولة إشراك دوائر أكبر فأكبر فى
فعل الاختيار والمسئولية، الدوائر الأكبر هى امتداد للوعى الشخصى فى الوعى الكونى، وليست تقويضا
لأى سلطة كائنة ما كانت دينية أو سياسية أو اقتصادية. هذا التأويل شديد الخطورة إذا تصورنا أن أحدا
غير الأنبياء له مثل هذا الحق فى الطاعة، وحتى الأنبياء ليس لهم حق الطاعة المطلقة الا بقدر
مصادقية تواصل وعيهم مع الوعى الكونى إلى وجه الله.

حين يكون الحديث عن الحرية والإبداع فإن المقصود هنا هو الإشارة إلى أن الاعتمادية المختارة،
والمفهومة والمتصلة بالوعى الكونى، والطبيعة الفطرية، هى اختيار فى ذاتها يكاد يكون أكثر حركية من
تشنج مدع على الجانب الآخر.

إذا انتقمنا من كل هذا التذات معنى أضحى إسماعيل وإبراهيم، لوجدناها تمثل أقصى صور الطاعة حتى الذبح، ثم إحددة الولادة

وصلتني الاعتمادية في هذا الرمز في صورة طاعة الصغير للكبير حتى الموت ذبيحا، ولكن ليس باعتبار أن الكبير هو الأقدم والأقدر لمجرد أنه كبير، ولكن باعتباره الأقرب إلى الأكبر فالأقرب إلى وعى المطلق إلى وجه الله

أن إسماعيل حين أطاع أباه إبراهيم لم يقل له "إفعل ما تريد"، أو ما تريد، وإنما قال له "افعل ما تؤمر"، وكأنه ما أطاعه إلا لأن إبراهيم بدوره يطيع الحق الأكبر

هذا التفسير ليس دعوة إلى الاعتمادية بقدر ما هو محاولة إشرافك دوائر أكبر فأكبر في فعل الاختيار والمسئولية، الدوائر الأكبر هي امتداد للوعى الشخصى في الوعى الكونى، وليست تفويضا لى سلطة كائنة ما كانت دينية أو سياسية أو اقتصادية

أن الاعتمادية المختارة، والمفهومة والمتصلة بالوعى الكونى، والطبيعة القطرية، هي اختيار في ذاتها يكاد يكون أكثر حركية من تشبع مدعى على الجانب الآخر

إن الإقرار بحق الاعتمادية "معا" في رحاب وعى ضام، يسمح بالاعتمادية المتبادلة، كما قد يهوى الفرصة لمساحة أكبر، وحوار أعمق بما يتبع حركية أرحب

إن الإقرار بحق الاعتمادية "معا" في رحاب وعى ضام، يسمح بالاعتمادية المتبادلة، كما قد يهوى الفرصة لمساحة أكبر، وحوار أعمق بما يتبع حركية أرحب. أما الدخول مبكرا أو دائما في مسألة البحث عن هوية ذاتية متميزة، ثم الاستمرار في هذه الحساسية طول الوقت، فهذا أمر متعلق بثقافة أخرى ربما اضطرت لذلك حين تيقنت بتربص السلطات (الدينية خاصة) باستغلال هذا المفهوم قهرا وتبريرا كما ذكرنا.

يمكن أن نتابع هذا الفرض الفرعى من خلال بعض الأمثلة:

1- صورة الأب في إبداعات نجيب محفوظ شديدة الحضور قوية التأثير، وأشهر أب عند محفوظ هو السيد أحمد عبد الجواد فى الثلاثية، صورته الأبوية العملاقة تلك لم تمنع أولاده الثلاثة أن يشبوا مبدعين جميعا، كمال مبدع عقلانى شيزيدى رائع، وفهمى مبدع واقعى ثورى رائد، ويس مبدع لذى حر منطلق، ولا واحد منهم يشبه أباه (بما فى ذلك يس)، ولا واحد منهم عصى أباه، ولا واحد منهم لم يعتمد على أبيه، ولا واحد منهم ارتضى أن يتوقف عند تسليم عادى ماسخ .

ثم الأب الإله عند محفوظ : سواء كان زعلابوى⁽²⁾ أم الجبلابوى⁽³⁾ أم الرحيمى⁽⁴⁾ أم عاشور الناجى⁽⁵⁾ كان يغرى دائما بالتبعية والحماية، ولكنه كان يغرى ويعد بالكشف ويسمح بالابتعاد عنه فى نفس الوقت .

والشيخ الصوفى الوسيط فى "اللص والكلاب" مثلا بين الأب الإله وبين العبد الجائع إلى الاتباع كان دوره يتكرر عند محفوظ بشكل يفتح باب نوع من التبعية راقئة وإرادية وغير مشوهة أو مرفوضة بالمره .

2- فإذا انتقلنا إلى ديستوفيسكى واجهتنا صورة الأب المباشر بطريقة مختلفة، فكثير من آباء وأجداد روايات ديستوفيسكى فيهم قدر من الطفولة لا يخفى، بل إن أبناء وبنات روايات ديستوفيسكى كانوا يقومون بدور الأب فى كثير من الأحيان، من أول نيتوتشكا نزانونا حتى الفارس الصغير⁽⁶⁾ ، ثم الطفلة نلى فى مذلون مهانون، وكذلك أليوشا فى كارامازوف⁽⁷⁾ ' ومع ذلك فإن الاعتمادية هنا على الإبن لها نفس وظيفة الاعتمادية على الأب، وكناتهما تؤكدان الاعتمادية التى نريد هنا الاعتراف بإيجابيتها إذ لا تتعارض مع الحرية التى نزع منها فى شرقنا إنما تنبع من قبول الاعتمادية لتجاوزها، وليس من أزمة الهوية والمبالغة فى التأكيد على تحقيق حدود الذات بالاستقلال المبالغ فيه كما يشيع فى الغرب. ثم ننتقل إلى اعتمادية المبدع نفسه على كبير (رئيس دولة، مبدع أكبر، شيخ راع) ويحضرنى هنا مثالان بارزان:

الأول : اعتمادية المتنبى على سيف الدولة التى لم تعق إبداعه، ولم ترهق حركية توجهه، بل حفزته وحفظته وباركت إبداعه و أركت توصله سواء فى أوقات الرضا أو أوقات الهجر .

والثانى) :دون تفصيل) اعتمادية محمد عبد الوهاب على أحمد شوقي .

بل إن إعلان هذه الاعتمادية المتكرر فى باب المديح فى الشعر العربى بأكمله، الباب الذى لم أكن أستسيغه فى حياتى وحتى هذه اللحظة، ثم جاءتتى هذه الرؤية التى صالحت بين الاعتمادية والحرية بشكل مختلف عما تعلمته من قيم الغرب .

وأخيرا: فإن الاعتمادية المطلقة فى الإبداع الصوفى الحقيقى: إبداع الذات فى الكون العبودية التوليدية إن صح التعبير) هى فصل الخطاب فى هذه المسألة .

الاعتمادية المعلنة والصريحة قد تخدم الحرية بالمعنى الذى تقدمه هذه الدراسة، ولكنها قد تعوقها إذا وصلت إلى الاعتمادية الرضيعة المشلولة المشللة فى أن .

ربما كان من أهم ميزات إعلان الاعتمادية الصريحة على دعم الخارج هو التخلص من ألعاب الاعتمادية الخفية التى تستعمل ألفاظ استقلال زائف، واختيارى أحادى المستوى. الاعتمادية المعلنة اختياراً هى قضية مرحلية يمكن حسمها بجدل الخارج يوما ما، ما دامت شروطها واضحة ومقبولة، إن كل ذلك يسمح للذات أن تكون أكثر مرونة وأرحب مجالاً فى تناولها الدورة بعد الدورة فى مرونة حرة، بدلا من المناورات الداخلية تقمصا وغمدا وإدخالاً، ثم يا ترى!

ربما أدت هذه الاعتمادية المعلنة إلى التقليل من المبالغة في الخوف من خطورة القفزة إلى المجهول، (المستوى الثالث للاختيار: أتجمد أو أظفر) وبالتالي قد تشجع على الاختيار الأصعب (الإبداع الوثبة أو الاندفاع)، يتم ذلك أو مثله في بعض خبرات التصوف (8) حتى يواصل المبدع لذاته كدحه إلى الحق مبدعا حرا مطمئنا إلى أن ثمة من يتلقى القفزة لو أخطأ الحساب.

.....

ونكمل الأسبوع القادم

- [1] هذا هو الكتاب الثالث باسم "عن الحرية والجنون والإبداع" نشرت صورته الأولى في مجلة فصول- المجلد السادس - العدد الرابع 1986 ص(58/30) وقد تم تحديثها دون مساس بجوهرها، وهو الفصل الثالث من كتاب "حركية الوجود وتجليات الإبداع" الصادر من المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة، والكتاب يوجد في طبعته الأولى 2007 وهذه هي الطبعة الثانية بعد أن قُسم إلى أربع كتب أضيف إليها ما جد للكاتب بين الطبعتين، وهذا الكتاب هو الثالث.
- [2] نجيب محفوظ: "زعبلاوى" في مجموعة قصص "دنيا" - مكتبة مصر 1963.
- [3] نجيب محفوظ: رواية "أولاد حارتنا"
- [4] نجيب محفوظ (الطريق) مكتبة مصر 1984
- [5] نجيب محفوظ (ملحمة الحرافيش) مكتبة مصر 1985
- [6] يحيى الرخاوى. (1982) قراءة في ديستوفسكى (من عالم الطفولة). الإنسان والتطور، 12 : 171-137. تحدثت في "تبادل الأئنة" الهيئة العامة لقصور الثقافة 2006
- [7] يحيى الرخاوى عن ديستوفسكى: (1) زخم الحياة وصلابة الموت في الاخوة كارامازوف (تبادل الأئنة: منشورات الهيئة العامة لقصور الثقافة 2006)، وكذلك: قراءة في ديستوفسكى (2) نشوة البغض وألوان الحب في مذنون مهانون لديستوفسكى (دراسة لم تنشر بعد.)
- [8] بعد كتابة هذه الأطروحة بسنين تواصلت قراءتي لمواقف "النفري" تعقيبا محاورا وصلني من خلاله هذا القدر الرائع من الاعتمادية الحرة الخلاقة في أغلب ما تناولت من مواقف، ومما وصل للنفري استلهاما، وما حاورته فيه نقدا، وكالنقد.
- يحيى الرخاوى - إيهاب الخراط "كتاب "مواقف النفري بين التفسير والاستلهام" سنة 2000
- نشرات الإنسان والتطور اليومية "حوار مع الله" من 20-10-2008 إلى 3-11-2012
- نشرات الإنسان والتطور اليومية "حوار مع مولانا النفري" من 10-11-2012 إلى 26-11-2019

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhaw/RakD301119.pdf>

*** **

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيقا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2019 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار السادس)

الشبكة تطفئ شمعها الثامنة عشر وتدخل عامها التاسع عشر من التأسيس

18 عاما من الكد... 16 عاما من التواصل "

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

الاعتمادية المتنبى على سيفه
الدولة التي لم تعق إبداعه،
ولم ترهق حركية توجهه، بل
حفزته وحفظته وباركت
إبداعه و أركت تواصله سواء
في أوقات الرضا أو أوقات
المحز

إن الاعتمادية المطلقة في
الإبداع الصوفي الحقيقي:
إبداع ذاته في الكون
(العبودية التوليدية إن صغ
التعبير) هي فصل الخطاب
في هذه المسألة

الاعتمادية المعلنة والصريحة
قد تقدم الحرية بالمعنى
الذي تقدمه هذه الدراسة،
ولكنها قد تعوقها إذا وطلت
إلى الاعتمادية الرضيعة
المشلولة المشلة في آن

الاعتمادية المعلنة اختياراً هي
قضية مرحلية يمكن حسمها
بجدل الخارج يوماً ما، ما دام
شروطها واضحة ومقبولة